الفصل الخامس

ملحوظات عامة على تاريخ مصر القديم والحديث

لما كان الغرض من هذا الباب هو الإلماع بذكر بعض ملحوظات جمالية لتاريخ مصر العام وجب علينا أن نبين الأسانيد والمواد التي إعتمد عليها المؤرخون لإحياء تاريخ الدولة الفرعونية المصرية وهذه الأسانيد هي:

(المادة الأولى)

هي نفس الآثار القديمة الموجودة إلى الآن بأطلال المدن المندرسة مثل المعابد والهياكل والمنازل والاهرام والمسلات والمساطب والتماثيل والأصنام والأحجار والتقييدات المسطورة عليها بالقلم البربائي والورق البردي وغير ذلك وجميعها سند قوي ليس فيه مطعن ولا مغمز بل حجة يركن إليها ويعول في الصحة عليها لأن أصحابها كتبوها بأيديهم مدة حياتهم وأصبوها على ملأ الإشهاد لتخليد ذكرهم على ممر الدهور وكر العصور فهي جمادات ناطقة بالأخبار الصادقة وصحف السالفين ونبأ الأوّلين.

(المادة الثانية)

تاريخ القسيس مانيطون المصري الذي ألفه بالغة اليونانية سنة ٢٥٠ قبل الميلاد مدة حكم الملك بطليموس الثاني المدعو فيلودلنيس أي محب أخيه وكان جمعه بإذن هذا الملك من الدفاتر الرسمية المحفوظة بالمعابد المصرية والتحريرات السلطانية والقيودات العلمية غير أن هذا الكتاب النفيس إغتالته الغوائل وصالت عليه يد الدهر الصائل ولم يبق منه إلا بعض وريقات وصلت إلينا في ضمن كتب مؤرخي اليونان بعدما حرفتها أقلام النسخ وألبستها أشنع ثياب التحريف والمسخ وهي على ما صارت إليه من سوء الحال ودرجة الإختلال لم تزل يعتمد عليها ويرجع في حل المشكلات إليها لأن هذا الكاهن المصري لم يقتصر فضل معرفته على الإحتياط بأسرار دينه بل كان له دراية تامة بأحوال باقي الأمم من يونان وعجم فلو كان هذا الكتاب بقي لدينا لكان كنزاً لا يفنى وثقة به عن غيره يستغنى.

(المادة الثالثة)

كتاب المؤرخ ديودور الصقلي وهو سائح يوناني وفد إلى مصر قبل ميلاد المسيح بنحو ثمان سنين وعقد فيه باباً مخصوصاً تكلم فيه على تاريخ مصر القديم إلا أنه غير شاف للمراد.

(المادة الرابعة)

كتاب إسترابون اليوناني وهو أحد علماء الجغرافيا تكلم فيه على جغرافية مصر التخطيطية القديمة وذكر أماكنها وبلادها الشهيرة.

(المادة الخامسة)

كتاب المؤرخ بلوتاركه الذي تكلم فيه على ديانة المصريين ومعبوداتهم وهو باللغة اليونانية أيضاً.

(المادة السادسة)

جدول ورقة تورينو وسيأتي الكلام عليها أما تاريخ مصر القديم فيبتدئ بإستيلاء (منا) أو مصرايم رأس الدولة الفرعونية على منصة الحكم وينتهي بصدور أوامر الملك (نيودوسيس) أحد إمبراطرة رومة الشرقية بالتحريج على الديانة الونية أعني سنة ٣٨١ بعد ظهور المسيح عليه السلام.

وينقسم تاريخها الديني إلى ثلاثة أدوار كلية

أولها دور الجاهلية والصابئة وقدره ٥٣٨٥ سنة ومبدؤه قيام الدولة الملوكية الأولى سنة ٥٠٠٤ قبل الميلاد وغايته صدور أوامر الملك تيودوز أو تيودوسيس بالتحريج على الديانة الوثنية سنة ٣٨١ بعد الميلاد وفي جميع هذه المدة الطويلة كان المصريون يستعملون في كتابتهم القلم البربائي أو الهيروجليفي بكل أنواعه.

ثانيها الدور المسيحي ومدته ٢٥٩ سنة ومبدؤه سنة ٣٨١ وغايته الفتح الإسلامي سنة ١٨ من الهجرة أعني سنة ٦٣٨ بعد المسيح وفي جميع هذه المدة كان القلم القبطي هو المتداول بها بعدما إشتق من القم اليوناني.

ثالثهما الدور الإسلامي ومدته ١٢٥٥ سنة ومبدؤه سنة ٦٣٨ بعد الميلاد لغاية آخر سنة ١٨٩٣ والخط المتداول في جميع هذه المدة هو الخط العربي بكل أنواعه.

أما مدة الجاهلية أو الصابئة فتنقسم إلى أربعة وثلاثين عائلة أو دولة ملوكية يتكون منها أربع طبقات أصلية بالنسبة لقوة مصر أو إضمحلالها.

(الطبقة الأولى) مدتها ١٩٤٠سنة وتبتدئ بحكم الملك (منا) أو (مصرايم) سنة ٥٠٠٤ قبل الميلاد وتنتهي بإنقراض العائلة العاشرة التي كانت قبل ميلاد إبراهيم الخليل عليه السلام أما ما قبل ذلك فلا يعلم منه شيء ألبتة كما أن تاريخ هذه المدة مظلم جداً ولا يعلم منه إلا بعض روايات قليلة رواها لنا المؤرخ هيرودوت اليوناني نقلًا عن كهنة مصر أو بعض إكتشافات يسيرة برزت من كساء الظلام عن مدة زمن الأهرام الذي هو عبارة عن العائلة الرابعة والخامسة وجزء من السادسة فقط وفي هذا العصر إرتقى فن الخط وعمل التماثيل إلى رتبة سامية جداً بدليل ما وجد من النقوش البربائية والصور الفريدة في بابها المحفوظة الآن بدار التحف المصرية أما علم الهندسة وأحكام البناء فقد بلغا إلى الدرجة القصوى لأن المتأمل في هيئة هؤلاء الأهرام التي صبرت على كيد الزمان يعلم أنها أغرب من كل شيء بعد قدرة الله عز وجل وسيأتي الكلام عليها فيما يأتي إن شاء الله تعالى أما العائلة السابعة وما بعدها إلى نهاية العاشرة فتاريخها مبهم بل ضال في غياهب الأحقاب ومتوار بالحجاب ولا يعلم منه شيء ما وكأن الديار خلت من أهلها ومن نظر إلى الآثار القليلة الباقية من العائله الثانية والثالثة التي وجدت حديثاً رأى عليها من الغلظ والخشونة ما يدله على أن مصر كانت في حالة البداوة أو الطفولية وأن هذا العهد هو زمن التفريخ الذي لابد لكل دولة أن تمر به قبل بلوغها إلى درجة الرفاهية.

(الطبقة الثانية) مدتها ١٣٦١ سنة وتبتدئ بقيام العائلة الحادية عشرة وتنتهي بإنقراض العائلة السابعة عشرة وفي مدتها ولد الخليل إبراهيم عليه السلام ببلاد (أور) أو (أورفا) أي الرها وجاء الى مصر يوسف ويعقوب والأسباط غير أن تاريخ هذه الطبقة مهم أيضاً ولا يعلم منه إلا العائلة الثانية عشرة التي فيها هبت مصر من نومتها الطويلة وإستيقظت من غفلتها الوبيلة أو نشطت من عقال وإنطلقت من سلاسل وأغلال فتغيرت بظهورها طريقة الكتابة وشعائر الدين والألقاب الرسمية للملوك والسلاطين وأسست بالصعيد مدينة طيبا وإتخذتها مقر دولتها وقاعدة سلطنتها وشيدت العمارات ونصبت المسلات وعملت الخزانات النيلية فتقدمت الفلاحة المصرية ويرى لهذه العائلة بعض مباني جهة السودان والشلال الثاني بيد أن هذه المدة لم تكن إلا كطيف سري في سنة الكرى حيث هوى بدر مجدها وأفل كوكب سعدها وهجم عليها العمالقة هجوم السيل وأذاقوها من العذاب أشد الويل وجلسوا خلال الديار وهي بين ذلك تستجير ولا

تجار ومكنت خمسمائة وإحدى عشرة سنة وهي تقاسي الذل والمسكنة ثم خرجوا منها بعد المحاربات الشديدة والمطاردات العديدة.

(الطبقة الثالثة) مدتها ١٣٧١ سنة وتبتدئ بظهور العائلة الثامنة عشرة وتنتهي بإنقضاء دولة الفراعنة المصرية المتممة للثلاثين أعني بإنهزام الملك نقطنبو الثاني وإستيلاء العجم عليها ثاني مرة وفي مبدأ هذه الطبقة ظهرت مصر بأقوى مظهر وبرزت بأبهج منظر ونبغ فيها كبار الملوك الفاتحين فأخذوا يوالون الحروب في الشمال والجنوب حتى إستولوا على الحجاز واليمن والشام وبلاد العراق وجميع بلاد النوبة والسودان وملؤا حافتي النيل بعماراتهم كما أرهبوا مشارق الأرض ومغاربها بقوة بأسهم وغزواتهم ودانت لهم البلاد وحكموا العباد وفتتوا طرق التجارة وأعادوا لمصر رونق المدنية والحضارة وبذلوا في ذلك أقصى همتهم وطاروا في سماء التقدم بكل أجنحتهم وفي هذه المدة ولد موسى وهارون وخرج بنو إسرائيل وغرق فرعون ثم بعد ذلك تداولت أيامها وإنخفضت أعلامها وإنحط قدرها وإحتجب بدرها وإرتبكت الأحوال في الأوحال وتغير حلو الماضي بمر الحال وإختلفت الأمور ولبس تاج الملك الكاهن حرحور فإنقسمت مصر إلى قسمين وإشتعلت نار الحرب بين الحزبين وانهزمت القدس وقصدت السودان وخلت منهم الأوطان ثم إستفحل الشقاق بعد حكم الملك شيشاق وأغارت العبيد على أرض الصعيد وجاء الأشوريون أو السريان وقاتلوا أمة السودان ومكث الحرب عامين وإستولوا على مدينة طيبا مرتين وأسلموها إلى السلب والنهب وأوقعوا بها الويل والكرب وبعد ذلك إنقسمت مصر إلى إيالات صغيرة وتداولتها الملوك الكثيرة وما زالت تتجرع غصص الأيام حتى وقعت في قبضة الأعجام وسقوا أهلها كأس الجام فإنظر إلى الحال كيف إنقلب وإلى المغلوب كيف غلب وأين ذهبت تلك الفتوحات هيهات هيهات لتلك الأوقات أين زمن الجزية التي كانت مصر تكلفهم بها مع الإحتقار وتنابذهم الألقاب مع الذل والصغار فتدعوهم بالأسافل وتسميهم برعاع القبائل وما زالت مصر تعاني الهوان إلى أن إستولى عليها اليونان.

(الطبقة الرابعة) أو الأخيرة وتسمى بالدور الأسفل ومدتها ٧١٣ سنة وأولها إسكندر المقدوني وآخرها صدور أوامر الإمبراطور تيودوز الأكبر سنة ٣٨١ بعد الميلاد وهذه الطبقة تنقسم الى دولتين إحداهما دولة اليونان وثانيهما دولة الرومان.

أما دولة اليونان أو البطالة فقد إرتقت مصر في أول حكمها إلى درجة عظيمة بما جلبه

بطليموس الأول والثاني من الكتب والعلماء غير أن مصر نزلت بعد هذين الملكين عن مرتبتها التي كانت لها مدة التحوتميسيين والرمسيسيين وبرزت في منظرآخر حقير ووجه صغير وصار تاريخها يردف بعد تاريخ اليونان كالذيل المسحوب وحوادثها السياسية كانت عبارة عن مخاصمات نسوانية لأغراض شهوانية غير أنها تركت مآثر جليلة من المباني والعمارات.

أما دولة رومة فإقتصرت مصر في أيامها على مزاولة الفلاحة وإنكفت عن التداخل في السياسة الخارجية وكانت كل نصراتها في الحروب تعود بالفخر على مملكة رومة ولم يعد عليها من تتبعها لها أدنى فائدة إلا إرشادها في آخر أيامها إلى دين عيسى بن مريم عليه السلام ومن ذا الذي يجهل ما حصل من التعذيب لمن تنصر حينما دعى القديس ماري مرقص أهل مصر لإتباع هذا الدين وإلى هنا إقضى زمن الجاهلية والعبادة الوثنية.

أما الدور المسيحي أو زمن النصرانية الذي مدته ٢٥٩ سنة كما تقدم فكان فيه لعلماء الإسكندرية مزيد الشهرة وبعد الصيت حتى صار لهم على مملكة رومة الشرقية السلطة الروحانية حيث ظهرت أنوار شموسهم الساطعة ولمعت بروق علومهم اللامعة فإفترق أهل مصر إلى حزبين أحدهما تدين بالدين المسيحي بعدما شابه بعقائده الوثنية القديمة فحكم عليه بالهرطقة في جمعية القسس التي إنعقدت في مدينة كلسدوان (وهي مدينة قاضي كوي الآن) على بوغاز القسطنطينية أما الفرقة الثانية وهي الملكية فإتبعت مذهب اليونان ولا يخفى ما ترتب على ذلك من الخصومات الشديدة والمشاحنات العنيدة والمجادلات العديدة وقيام القيامات في الأزقة والحارات وكثرة إشتعال النيران الحسية والمعنوية في كثير من الجهات وظهور مناسر اللصوص المستعدة وكانت الإسكندرية مشحونة بالمشاجرات بين اليهود والنصارى أو بين النصارى مع بعضهم لأجل مسئلة دينية فهمها كل قوم على حسب إعتقادهم وأولها كل جماعة على مقتضى إجتهادهم وفي ذلك الوقت داس العرب بلاد الشام وقصد المغاربة ديار مصر فدفعهم نائب القيصر عنها بالجنود الرومانية ولكن صاروا يتوعدونها بالقدوم ويتهددونها بالهجوم ولعل هذا الإنحطاط سهل لدين الإسلام سبيل النجاح.

أما دور الإسلام الذي مبدؤه سنة ٦٣٨ بعد المسيح فينقسم إلى جملة دول إسلامية وهي دولة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجعين ثم دولة بني أمية ودولة بني العباس ودولة أحمد بن طولون والدولة الأخشدية والفاطمية والدولة الأيوبية أو الكردية ودولة المماليك ودولة آل

عثمان وهي الحاكمة الآن خلد الله ملكها ما تعاقب الملوان وفي هذه المدة الطويلة كم تقلب عليها عمال وتغيرت فيها أحوال وحكها سلاطين أجانب من المشارق والمغارب وتنازعتها عوامل الخفض والرفع وتجاذبتها أيادي الوصل والقطع وكم من مقسط أمام رفع لذروة مجدها الأعلام وكم من عامل جار وسلطان كساها ثوب عار وما زالت صاعدة نازله ونجومها طالعة آفله حتى أتاح الله لها من أبعد عنها كوارث الكواسر وأنشأ فيها محاسن المفاخر درة جيد الزمان مُحَمَّد الاسم على الشان عليه سحائب الرحمة والرضوان فإستولى عليها وأهلها نحو المليونين ونصف وكسر وأطيانها تقرب من هذا القدر والباقي فساد وبور مجرد عن الترع والجسور ولو كان دام حكم إبراهيم بك ومراد بك نحو العشرة أعوام لقلنا على مصر وأهلها السلام راجع أيام المماليك وغيرها وبناء جامع السلطان قلاوون وغير ذلك في المقريزى وراجع الجبرتي والخطط الجديدة تأليف المرحوم علي باشا مبارك إن شئت وليعلم القارئ أن مصر لم يقم لها تخت أهلي من بعد إنهزام نقطنبو الثاني سنة ٣٤٠ قبل الميلاد لغاية الآن.